

الحوار الإسلامي: قراءة في المفهوم والغاية

إعداد : د. حمزة مسعود الطوير
رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية
التربية - جامعة الجبل الغربي بالزاوية

مجلة التبيان - كلية الآداب - جامعة
طرابلس - العدد 7 - 2013م

توطئة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على معلم البشرية أصول الحوار وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار. أما بعد:

فإن الحوار قضية تفرضها طبيعة الإنسان الاجتماعية وأسلوب عيشه القائم على المشاركة والانفتاح على الآخر، والتعاون معه لتلبية حاجاته العلمية والنظرية، وتحقيق الإشباع المادي والمعنوي وفق ما سنّه الله من الاختلاف والتدافع في الحياة. إذ إن الاختلاف آية من آيات عظمة الله، ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول تعالى في كتابه العزيز ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾¹ فوحدة الجنس أو اللون أو اللغة ليست من الضرورات التي لا يمكن تحقق التفاهم من دونها. لذلك لا بد من أجل إقامة علاقات مبنية على المحبة والاحترام من الحوار وفق قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها الله وأرادها أن تكون، والتي يتكشف للعلم أنها موجودة حتى في الجينات الوراثية التي تشكل بعناصرها شخصية كل منا وتمايزاتها. ومع هذه الاختلافات الفطرية كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج، وهو ما أكدّه القرآن الكريم بقوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾²

معنى الحوار:

إذا كانت المحاولات الإصلاحية الرامية إلى خلق التعايش السلمي بين الناس تستوجب إيضاح المفاهيم المتعلقة بالحوار من الناحية النظرية والعملية، فإن المتأمل في معاجم اللغة بحثاً عن معنى الحوار يلحظ أن هذا المصطلح يأتي وفق حقول دلالية متعددة؛ فهو يعني السؤال والاستنتاج ويعني الرد والجواب، ومراجعة النطق، وتبادل الكلام كما صرح بذلك أصحاب المعاجم اللغوية التي تحصر المضامين المعرفية لمفهوم الحوار في الإقرار التام بحق الآخر في عرض قضاياها وطرح

¹ - سورة الروم، الآية 22

² - سورة المائدة، الآية 128

مقولاته من غير قهر ولا جبر، مع الإصغاء إليه، وتفهم ما يذهب إليه من الآراء، ومنحه الحق في الدفاع عما هو مقتنع به¹.

فهدف الحوار مركز في شرح وجهة النظر وتبيان المعطيات التي تقوم عليها، وفي الوقت نفسه الانفتاح على الآخر لفهم وجهة نظره والتفاهم معه. ذلك بأن التفاهم لا يكون من دون فهم متبادل. والحوار هو الطريق إلى استيعاب المعطيات والوقائع المكونة لمواقف الطرفين المتحاورين، ثم إلى تفاهمهما.

لا شك أن الحوار مع الآخر يعدّ اكتشافاً للأنا، وعن طريقه يتم اكتشاف النواقص التي لا تخلو منها شخصية إنسانية. إذ إن الآخر هو وسيط بين الإنسان ونفسه، ومفتاح لفهم ذاته والإحساس بوجوده، ومن ثم كان إقرار الله تعالى لسنة الاختلاف في الكون منهجاً يرمي إلى التعايش الطبيعي وتوجيه علاقات الناس وضمان تفاعلاتها الإيجابية بما يحقق مسؤولية الاستخلاف في الأرض، وفق علاقات تتبني على الاحترام والأمر بالمعروف لضمان التواصل الإنساني والتبادل النفعي في المعاملات الحياتية، ومن ثم ينتقل التدافع القهري المتمثل في التهارج والصراعات إلى تدافع سلمي، وهو ما تدعو إليه تعاليم الشريعة الإسلامية التي ترى في الحوار فريضة واجبة وضرورة شرعية لتحقيق الوئام.

فالدعوة إلى الحوار والالتقاء بالآخر ومجادلته بالتي هي أحسن دعوة قرآنية وتكليف شرعي قائم على الحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾² فالإنسان وإن كان ابن بيئة محددة تفرض عليه أنماطاً من السلوك والتفكير وتطبعه بعبادات وأعراف خاصة فإنه مطالب بالتفاعل مع بني البشر بالاحترام على صعيد الشعائر والمعتقدات، والاعتراف بهم والتسامح معهم بعيداً عن التعصب للجنس أو اللون أو الطبقة أو الدين، والحوار بمفهومه الإسلامي الصحيح يخرج هذا الإنسان من دائرة الانتماء المحدود الذي يضيق آفاق إنسانيته وتواصله مع الآخرين إلى دائرة أوسع هي دائرة البشرية ذات الأصل الواحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

¹ - ينظر لسان العرب - ابن منظور - مادة (ح و ر) والقاموس المحيط للفيروزآبادي

² - سورة النحل ، الآية 125

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ¹ فالحوار الإسلامي فضلاً عن أنه سبيل إلى تفاهم المختلفين يرمي إلى تأكيد حقوق الإنسان في حين لا تعرف الملل والأمم الأخرى إلا حقوقها، وحوار الإسلام يهدف إلى توثيق العهود واحترامها في حين يزمن اليهود وغيرهم نقض العهود.

طبيعة الحوار في الإسلام:

إن الحوار في الإسلام مركوز في ((رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب))² وليس لأحد أن يدعي الحقيقة المطلقة. وليس له أن يخطئ الآخرين لمجرد اقتناعهم برأي مخالف؛ لأن البشرية في جميع مراحلها محكومة بما يسمى قانون الاختلاف، ثم إن الحوار في منظور الشرع يعدّ أول سنة اجتماعية سنّها الله لخلقه ليقنّوا بها ويهتدوا بهادها، ولتبرز حقيقة التربية الإلهية. فقد ساق القرآن تحاورات متعددة، لتكون منهجاً تسير عليه الخليقة ويقنّدي به أولو النهى من الناس. ففي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾³ أرسى القرآن الكريم قواعد واضحة للاعتراف بالآخر فحكى ما جرى من تحاور بشأن بدء الخليقة وآلية الاستخلاف في الأرض، وهو موضوع حيوي ومهم ؛ لتكون هذه المحاورة هدياً يلزم بني آدم منذ الخلق الأول، فاستئناف النص القرآني بـ " قالوا " يفيد أن توجيه خطاب الله تعالى إلى الملائكة كان على سبيل التعليم والإرشاد لفهم الآخر فهماً يزيل الاستغراب ويدعو إلى الاحترام المتبادل في ظل الإيمان بقدرة الله خالق الكل. وفي ذلك يقول ابن عاشور ((قول الله هذا موجّه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني

¹ - سورة الحجرات ، الآية 13

² - هذا القول منسوب للإمام الشافعي ؒ

³ - سورة البقرة ، الآية 30

على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس وليكون كالاستشارة لهم تكريماً لهم، فيكون تعليماً في قالب تكريم ¹((

ولا شك أن هناك لكل اعتقاد أصولاً إيمانية يتجاوز بعضها النقاش العقلي إلى الإيمان بالغيب، ولكل اعتقاد تجلياته في السلوك والحياة عامة، والحوار الفعال هو الذي يستطيع التجرد لما يمكن البناء عليه من أصول إيمانية انطلاقاً نحو إدارة أفضل لحياة الناس على مختلف مشاربهم. وهنا تكمن إضافة الدين للحياة وواقع الناس، وبخاصة ما يجمعهم وينفعهم. ومن ثم كانت محاورات القرآن لأهل الكتاب تعتمد على المحاجة العقلية الرامية إلى محاولة فهم الآخر وإقناعه؛ لأجل تأصيل الوحدةانية وتأكيداتها وتجديدها، فالقرآن يأخذ على اليهود نقضهم عهد الله واتخاذهم عزيز ابن الله، ويأخذ على النصارى انحرافهم من التوحيد إلى التثليث، ومن ثم وجه إليهم نداءه العادل ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ² لأجل الدفاع عن أساس دينهم وصفاته ووحدة مصدره. إن العقيدة في الإسلام تستقر بالفكر اختياراً ولا تُلصق باللسان قهراً وإجباراً فالله تعالى يقول ﴿لا إكراه في الدين﴾ ³ وقد تجلت سماحة الحوار الإسلامي في أول دستور اجتماعي خطّه رسول الله ﷺ بالمدينة، إذ جاء فيه أن أهل الكتاب ((... أمة مع المؤمنين . فليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته)) ³

ولنا في إطلالة سريعة أن نقف على قراءة وصفية لتاريخ الحوار في الإسلام؛ منذ أن سطع نوره، حيث أدرك النبي ﷺ وأصحابه عالمية الدين وطبيعته، فقاموا يدعون الناس إلى هديه، فبدأ الحوار بينهم وبين المشركين، وسجل القرآن الكريم في العديد من آياته كثيراً من هذه الحوارات التي تضمنت الرد على المشركين بما يتمشى

¹ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية، ط 1984م ، 1 / 400

¹ - سورة آل عمران ، الآية 64

² - البقرة، الآية 256

³ حياة محمد - محمد حسين هيكل - مطابع السنة المحمدية - القاهرة - 1968م - ص 326 .

مع آداب الحوار وسماحة الدين نذكر مثلاً قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥٥﴾ لَنْ يَجْمَعَ بَيْنُنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٥٧﴾

4

وكان من أهم المناسبات التي كان للحوار الهادف فيها دور إيجابي وفعل هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة، و ما دار بينهم وبين النجاشي من تحاور حول معتقد المسلمين في المسيح ﷺ وأمه وما جاء في كتاب الله بشأنهما.

كما كانت مراسلة النبي ﷺ لملوك النصارى وزعمائهم نوعاً من الحوار، فقد

أرسل ﷺ أصحابه بكتبته إلى النجاشي وكسرى وهرقل والمقوقس .

لعل من الشواهد التي تجسد الحوار الإسلامي في طابعه الدعوي، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث سهل بن سعدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَعَلِيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ أَعْطَاهُ الرَّايَةَ « انْظُرْ عَلَيَّ رِسَالِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ »¹

لم يغفل التاريخ الإسلامي أن يسجل الحوارات التي جرت في قصور السلاطين بين المسلمين وغيرهم كحوار الخليفة هارون الرشيد مع طبيبه النصراني، واستعانت به بعالم خراسان محمد بن عمر بن واقد . كما جمع الخليفة المأمون بين كلثوم بن عمرو العتابي وابن فروة النصراني، حيث تناظرا بين يديه في قول النصارى بالوهمية المسيح. وأسلم بعض فلاسفة النصارى الذين تهيأت لهم فرص التحوار في قصور الخلافة مع نخبة من علماء الإسلام كالجبائي والأشعري والكعبي وغيرهم²

⁴ - سورة سبأ، الآيات 24 - 27

¹ - صحيح مسلم بشرح النووي - مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة - باب من فضائل علي بن أبي طالب -

² - ينظر: الحوار ثقافة ومنهجاً فاتحة العبدلوي - طوب بريس - الرباط - ط1 - 2008م - ص 22 ، و

كتاب عيون المناظرات ص 185 وما بعدها

ويمكن الاستشهاد لمثل هذا النوع من الحوار بما دار بين المأمون وبين رجل من خرسان كان قد ارتد في عهده، فحمل إليه حتى وافاه، فقال المأمون: لأن أستحييك بحق أحب إلي من أن أقتلك بحق ، لأن أقيلك بالبراءة أحب إلي من أن أدفعك بالتهمة ، قد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً وكنت فيها أتيح وأيامك أطول، فاستوحشت مما كنت به آنساً، ثم لم تلبث أن رجعت عنا وكنت نافراً، فخبّرنا عن الشيء الذي صار لك من إلفك القديم، وأنسك الأول ، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به، والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة . وإن أخطأك الشفاء ونبا عنك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة، وإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، أو ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر في اجتهاد، ولم تفرط في الدخول في باب الحزم. فقال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف بينكم . قال المأمون: لنا اختلافان؛ أحدهما كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجناز، والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة، وتخفيف من المحنة، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يخطئ، ومن أذن مثني وأقام فرادى لم يحو، لا يتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد ذلك تبياناً. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا، مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيله، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات . وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها ، ولو شاء الله أن يجعل كتبه ، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكننا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية . ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله الدنيا، فقال المرتد : أشهد أن الله واحد ، لا ند له ولا ولد ، وأن المسيح عبده ، وأن محمداً صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقاً (1) .

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية - محمد أبوزهرة - دار الفكر العربي - القاهرة 1996م - ص 143-144

وبعيداً عن قصور الأمراء تحاور علماء الإسلام مع غيرهم، فأسهمت الثقافة الإسلامية في التنظير لفنون الجدل واستثمار ملكة الحوار في تداول المعرفة حتى صارت مباحث المناظرة من الفنون التي تحتل موقعاً متميزاً ضمن العلوم فظهرت مدارس مختلفة وضعت مبادئ وقواعد في ضبط العملية الحوارية، وسنت آداباً وأصولاً تقوم المحاور والحوار.. فكانت المناظرات التي أبدعها المسلمون نماذج باهرة للحوار الجاد المتأدب. ولعل من أوائل ما نُقل في هذا الصدد حوار أبي حنيفة النعمان إمام مدرسة الرأي مع طائفة من الملاحدة حول سببية العالم¹.

كما كتب العلماء العشرات من الكتب والردود على محاورهم، فازدهر حوار الكتب، مثل كتاب "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" لابن تيمية يردّ فيه على كتاب ورد من قبرص للأسقف بولص راهب صيدا². كما كتب أبوليد الباجي المالكي رسالة رد فيها على رسالة وجهها راهب فرنسا إلى المقتدر أمير سرقسطة يدعوه للدخول في النصرانية. وكتب أبو عبيدة الخزرجي القرطبي كتابه الشهير "مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان" رداً على أسئلة كان يثيرها قسيس قوطي على نفر من المسلمين بطليطة.

هكذا لم تنقطع الحوارات والكتب المتبادلة بين المسلمين وغيرهم، وإن خفت بريقها مع تراجع الحركة العلمية عند المسلمين².

وفي القرن العشرين نشط الحوار بين الرسالات، ودعا المتحاورون إلى عدد من المؤتمرات كمؤتمر تاريخ الأديان الدولي في بروكسيل عام 1935 م، والمؤتمر العالمي للأديان المنعقد في لندن عام 1936 م، ثم في باريس عام 1937 م. ونشطت الدعوة إلى حوار الرسالات إثر انعقاد مجمع الفاتيكان الثاني 1965م والذي دعا لاستئناف الحوار مع الرسالات، وأنشأ مؤسسات خاصة بذلك داخل الفاتيكان تولت الدعوة لعدد من المؤتمرات واللقاءات بين القيادات الدينية في العالم، ثم توالى الحوارات والدعوات من مختلف المؤسسات والمنظمات والدول الإسلامية

¹ - درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية ، 3 / 127

² - ينظر: الحوار ثقافة ومنهجاً ص 24

² - المصدر . نفسه ، ص 25

وغيرها؛ لينظر المتحاورون في الخيارات الممكنة والاحتمالات المتعددة التي قد تعترض تطبيقها ملاسبات وإشكالات تحتاج إلى نظر وتفكير وموازنة وحسن تدبير بغية الوصول إلى المواطنة والتعايش السلمي، والوقوف على الأفضل والأنسب للكيان الاجتماعي وما يسهم في نهوض الأمم ورفيها¹.

ومما يمكن أن يُعدّ من أساليب الحوار العصرية ما تحدّثه تكنولوجيا الاتصالات من ثورة هائلة في الإعلام الدولي أو عالمية الاتصال، وما عليه وسائل الاتصال في العصر الحاضر من عولمة البرامج الثقافية التي تستهدف الإنسان والتي تجاوزت حدود المحليّة لتتسم بالطابع الدولي فيما تعرضه من أنواع الثقافات التي تخاطب العقول بكافة مستوياتها وتنوع بيئاتها من خلال ما تبثه الفضائيات ومحطات التلفزيون، مما يستولي على عقول المشاهدين ويشد انتباههم ومتابعتهم، وما يمكن أن يحدثه ذلك من آثار تتصل بإدراك المشاهد واتجاهاته وقيمه، فأصبحت متابعة البرامج العالمية جزءاً من نسيج الحياة اليومية للمواطن بعد أن كان اهتمامه مركوزاً في البرامج المحلية. ومن ثمّ يمكن القول: إن انفجار المعلومات وتغلغلها في الآفاق يضفي طابعاً دولياً على وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ويكفل تفاعلاً جاداً يسهم في تلاقح الثقافات وامتزاج الفنون والحضارات، وتلك غاية من غايات الحوار.

إن المتأمل في هذه القراءة التاريخية السريعة في تاريخ الحوار لن يعدم رؤية ما قدمه الإسلام من نماذج حوارية فريدة منذ مبعث النبي ﷺ هذه النماذج تدعو لاستئناف الحوار الحضاري وتنشيطه من جديد وأخذ زمام المبادرة إليه، استجابة لأمر الله تعالى، وتأسياً بمنهج نبيه ﷺ بعيداً عن الانهزام والتبرير، وإيماناً بأن كل ما هو مشترك بين الناس من الأمور إنما هو محل للتحاور وإبداء الرأي، وأن كل ما يتطرق إليه الاحتمال والاستشكال وكل ما يثير عادة الخلاف ويدخله الاجتهاد البشري وما هو مشترك بين الناس من الأمور المتعلقة بالحقوق والمصالح هو مجال للتحاور، وجوباً أو ندباً بحسب أهمية تلك الأمور وحجم انعكاساتها على حياة الأمم والمجتمعات.

¹ - الحوار ثقافة ومنهجاً ، ص 25

أقسام الحوار :

ينبغي التنويه هنا إلى أن الحوار ينقسم إلى نوعين متغايرين تغاير الخير والشر، رغم اندراجهما تحت مفهوم الحوار، فهناك الحوار المخلّق الهادف الذي يستمد أساسياته وأهدافه من أحكام الشريعة التي جاءت لجلب المصالح ودرء المفاسد عن الأنام . وهناك الحوار غير المخلّق الذي ينبنى على الظلم ويستمد قوته من كل ما هو فوضوي.

فلا بد من تخليق الحوار من خلال التنقيف العام وغرس القيم الانضباطية والمثل العليا في نفوس المتحاورين حتى لا يتحول هذا الحوار إلى أداة للصراع والمشاحنة والجدل العقيم لينتج الخصومات المؤدية إلى الفرقة والشتات. فالتحاور سنة إلهية غايتها استمرار توازن الكون وإحداث السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فيجب أن يوجه التحاور نحو إرساء دعائم الأمن والسلام عملاً بقوله تعالى ﴿إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾¹ لأن الحوار غير المخلّق لا يأتي إلا بالخراب والدمار ولا يجزّ إلا الولايات سواء أكان على المستوى الفردي أم الجماعي، إذ إنه يمثل مبدأ وضعياً مفرغاً من الغايات الإنسانية ينتج الصراع الذي يحمل شحنة نفي الآخر وتجاهله، بل وقهره، والسيطرة عليه؛ سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً.

ولعل في تحاور أبناء يعقوب الذي ساقه القرآن ما يؤكد هذا المعنى ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَقَتَلُوا يُوسُفَ وَأَوْطَرُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْه فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾² ومن قبلهم تحاور ابني آدم ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾³

¹ - سورة الحجرات ، الآية 9

² - سورة يوسف ، الآيات 8 - 10

³ - سورة المائدة، الآية 27

ومن الحوار غير المخلّق قديماً مسألة خلق القرآن التي اقترنت بتاريخ المعتزلة، إذ أثاروها في العصر العباسي، وحاول خلفاء عصرهم حمل الفقهاء والمحدثين على القول بها ، ونزل ببعض أولئك الفقهاء ما نزل من فتن وشدائد، واضطربت النفوس والعقول، وأزهقت حرية العقيدة، وأوذى المتورعون في ألفاظهم ، والمتوقفون في علمهم عند حدود النص إيذاء شديداً، ولا ذنب لهم في ذلك إلا العكوف على كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ ، خشية أن يضلوا في نزعات الفكر وزيج العقول⁴ .

ولعل الغزو الثقافي السائد الآن وما ينجم عن عولمة الثقافة من إقصاء للآخر ودفن لثقافته وأنماط تفكيره يُعدّ نوعاً من الحوار الهادم الذي يهزّ أركان الحياة، فلا ريب أن الثقافة ذات خصوصية وأن لكل أمة من الأمم مبادئ وقيماً ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة، وتعبّر عن نظرتها للحياة وتتمّ عن تصورهما للوجود، فتحرص على استمرارها والمحافظة على كيانهما، ووقايتها من عوارض الزمن وصراع الأفكار، وتبذل في سبيل رسوخها وثباتها كل ما تملك من نفس ونفيس وجهد جهيد، وعند استعراض الأحداث التي غيرت تاريخ العالم من حروب وحركات فكرية ونهضات علمية نجد أنها جميعاً تهدف إلى اقتلاع فكرة وإحلال أخرى مكانها؛ سواء أكانت الفكرة البديلة هي الأمثل أم الأسوأ⁴.

تُمثّل العولمة الثقافية إذن في الوقت الحاضر إحدى الحلقات الجديدة في هذه السلسلة الممتدة، باعتبارها أحد وجوه العولمة وأكثرها تميزاً، وأعظمها خطراً، فهي تعني صبغ ثقافات الشعوب المتراكمة والموروثة بصبغة ثقافة النظام الواحد عن طريق الوسائل الحديثة المستخدمة، ومن ثمّ إقصاء الآخر وتهميشه، بعيداً عن التناغم الفكري والتبادل الثقافي بين الأمم الذي هو في حقيقته تفعيل حقيقي وتطبيق عملي لقوله تعالى ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾¹ ومن ثم يمكن القول إن استلاب الحريات المادية والفكرية وإعاقة سبل التحاور يؤذن بالفساد، وتنعكس آثاره

⁴ تاريخ المذاهب الإسلامية - محمد أبوزهرة - ص 51 .

⁴ - ينظر مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة ، للدكتور هاشم عبده هاشم ، مجلة كلية الملك خالد

العسكرية ، عدد صفر عام 1420هـ ص20

¹ - الزمر ، الآية 18

السيئة على المجتمعات؛ لأن ((من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران))¹

ومن أبرز شواهد التهاور والتفاعل غير المخلّق ما يسود الآن المجتمعات الإسلامية وما ينتاب شباب المسلمين من تقشي تيارات الغلو والتطرف بين ظهرائهم، والتي أفرزها القصور في فهم جوهر الإسلام وروحه القائم على السماحة والانفتاح والرحمة الشاملة للعالمين، فاتخذت سبيل رد الفعل واستخدام القوة والعنف والتدمير وكل ما لا يتفق مع مصالح البشر ولا يخدم مركزية استخلاف الإنسان، في حين جاء الإسلام ليؤسس للعيش الكريم بين أمم الأرض وشعوبها².
غايات الحوار :

إن حضور البعد الإيماني وتحقيق الفهم السليم لسماحة الدين هو الضمان الحقيقي لشرعية العلاقات في المجتمع الإسلامي، والذي يمكن أن يعمل على تسوية الخلافات وتقريب وجهات النظر؛ إذ إن المسلمين على قدر وافر من العلم والمعرفة، لكنهم يفتقدون الموجّه الصحيح والمؤشر الضروري الذي يمنح السلامة ويكسب الصواب لهذا العلم وتلك المعرفة، بحيث يمكن الاستفادة منها وتوظيفها فيما يعود بالنفع بعيداً عن الفرقة والشقاق.

إن من المؤسف حقاً في هذا الزمن أن المسلمين قد اكتسبوا المعرفة وافتقدوا خلقها، وأتقنوا فن الاختلاف وافتقدوا آدابه والالتزام بأخلاقياته، فابتاعوا الوسيلة بالغاية، وانتهجوا منهج الحوار غير المخلّق فأدى بهم إلى الخلاف حول أمور ربما كانت مندوبة أو مباحة، فأضاعوا المفروض والواجب، وسقطوا فريسة التآكل الداخلي والتنازع الطائفي الذي أورث الأمة حياة مهينة، وأدى إلى ذهاب الريح، معرضين بذلك عن قوله تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾³

¹ - مقدمة ابن خلدون ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1967م، ص 510

² - ينظر : الحوار ثقافة ومنهجها ص 82

³ - الأنفال: الآية 26

إن الوسطية التي ننشدها منهجا في الفكر وتربية في السلوك وأسلوبا في الدعوة وعلاقة بين أفراد المجتمع وصله بين المسلمين وبين غيرهم دائما تعطي المساحة لأن يكون " إجماع العلماء حجة قاطعة واختلافهم رحمه واسعة " وأن يكون الاختلاف ضربا من ضروب الرحمة، والسعة، والتجديد متى أخذنا بفقهه وآدابه، ولم نغال فيه فنجانب الحقيقة و ندّعي العصمة والقداسة، إذ لا عصمة ولا قداسة إلا لقول النبي ﷺ أما من عداه من العلماء فنأخذ منهم وندع كما أثر على إمام دار الهجرة " ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر "

نتائج البحث:

يحسن بنا في ختام هذا العمل أن نسوق أهم نتائجه في النقاط الآتية:

- إن الاختلاف والتنوع سنة كونية يتعين على البشرية قبولها والتعامل معها بعيداً عن الخلاف الذي ينتج النزاع والصراع والاقتتال والعداء. فلا بدا أن يجيل الإنسان فكره وأن يغير قناعاته متى بدا له الحق وثبت له رجحان الدليل.

- إن ما سيق من نماذج من الاختلاف المحمود والحوار المخلّق تجسّد خير دليل على أن الحوار سنة بشرية وسمة طبيعية تؤدي إلى فهم الآخر واستيعابه وتقبله، فإن اختلفت الآراء لم تختلف القلوب، لأن نياطها شدّت بأسباب السماء فما عاد لتراب الأرض عليها من سلطان. ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ¹ ﴾

- إن المضمون الرئيس للحوار يكمن فيما يحدثه من أثر في المجتمعات البشرية التي كانت تعيش كلاً في تاريخيته الخاصة، وحسب تراثه الخاص ووتيرة تطوره ونموه المستقلة، على الرغم من ارتباطها بالتاريخ العالمي، وقد أصبحت بفضل الحوار والانفتاح على الآخر تعيش في تاريخية واحدة فهي تتشارك في نمط إنتاج واحد يتحقق على مستوى الكرة الأرضية وهي تتلقى التأثيرات المادية والمعنوية ذاتها سواء التي تتعلق بالثقافة أو البيئة أو بالآزمات الاقتصادية أو بالمسائل الاجتماعية . وختاماً فإننا نتطلّع إلى أن يعي الناس كنه الحوار ومفهومه وما يرمي إليه من غايات وأهداف نبيلة، لاسيما أن معظم المجتمعات المعاصرة؛ عربية وغربية تتلاقح

¹ - النحل : الآية 125

ففيها الثقافات وتتوحد فيها الملل والنحل، فصار لزاماً على الناس التواطن والتعايش
وفق منهج فهم الآخر والتناغم معه .

المصادر

- * القرآن الكريم - مصحف المدينة - رواية حفص عن عاصم
- 1- تاريخ المذاهب الإسلامية - محمد أبوزهرة - دار الفكر العربي - القاهرة 1996م
 - 2- الجامع الصحيح، الإمام مسلم النيسابوري - مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة
 - 3- الحوار ثقافة ومنهجاً - فاتحة العبدلوي - طوب بريس - الرباط - ط 1 - 2008م
 - 4- حياة محمد - محمد حسين هيكل - مطابع السنة المحمدية - القاهرة - 1968م
 - 5- درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية
 - 6- عيون المناظرات
 - 7 كتاب الأمة - مقالة أدب الاختلاف في الإسلام - طه جابر فياض
 - 8- مجلة كلية الملك خالد العسكرية - عدد صفر عام 1420هـ - مقالة : دور الإعلام في نشر تيار العولمة - للدكتور هاشم عبده هاشم
 - 9- مقدمة ابن خلدون - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 1967م